آخر ما قالته الخنساء

للشاعر يوسف حسني

بقلم : الدكتور حين فتح الباب

شاعت في السنوات الأخيرة مقولة الرواية ديوان العرب ، بدلا من القول الراسخ الشعر ديوان العرب ، بمعنى أنه لسان حياتهم في مسراتهم وأحزانهم وسجل أيامهم ولياليهم ، وقد شاعت تلك المقولة بعد حصول كاتبنا العظيم نجيب محفوظ على جائزة نوبل .

والحقيقة والحقيقة أن الفن الروائي لم يسحب الأضواء عن فن الشعر لا من البلاد العربية ولا من العالم بأسره . وليس أدل على ذلك من ازدهار الشعر كما وكيفا في مصر ، إذ تبدعه مختلف الأجيال ولاسيما جيل الشباب .

ومن هذا الجيل الشاعر يوسف حسني الذي يقدم لنا ديوانه (جرح بحجم حبيبتي) ، وهو مجموعة شعرية من ست وعشرين قصيدة ، بدأها بقصيدة (آخر ما قالته الخنساء) التي نخصها بهذه الدراسة ، نظرا لكونها في رأينا رائعة الديوان ودرة عقده لتفردها في استعمال فن الرمز ، وتضفيرها بالمصطلحات العصرية ولاسيما وسائل الإعلام التكنولوجية مثل التلفاز والشبكة العنكبوتية الإلكترونية " النت " والريموت كنترول ونشرة الأخبار، وبأنواع الألبسة العصرية مثل الميكروجيب والجينز وأدوات الزينة كالسشوار " مجفف الشعر " ، مما يضفي على النص الشعري ألقا وبهاء وإثارة للدهشة .

وقد يبدو للقارئ المتعجل أن الشاعر قد أسرف وأغرق في استعمال هذه الحداثيات ، ولكن المتلقي الذي يسحره ويبهره النص الجديد في تقنياته يجد ضالته في تلك القصيدة إذ تمس ذائقته الفنية وتهز وجدانه وفكره ، فهو يدرك قدرة الشاعر على توظيف الرمز دون افتعال أو عناء ، فالخنساء ترمز للأمة العربية ، وقد استحيى شاعرنا هذه الشاعرة بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام ، ليرينا إياها وقد ارتدت زي القرن العشرين المزركش بعد أن كانت ترتدي العباءة البدوية . يريد

الشاعر أن يقول إن أمتنا العربية قد أخذت من الغرب القشور ولم تحذ حذوه في التحضر والمدنية ، وكأنها بذلك قد فطرت على التقليد الأعمى ، مما يذكرنا بمقولة الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي عن سمة التخلف وهي القابلية للاستعمار .

ويستهل يوسف حسني قصيدته هذه ببكائية للشعر كما بكاه أبو تمام قديما(*) ، ويفاجئنا الشاعر بأن الخنساء هي التي تبكي فن العربي الأول ، وأن هذا الاستهلال الذي صاغه وبلغ عشرة سطور قد ورد على لسانها :

ليبقَ الشعرُ مَصلوبًا

ومعصوبا بتاج الصمت

متهما بنشر ثقافة الكفرِ

فمادام "السليميون" / قد باعوا كرامتهم

وخروا في سبيل الخبزِ

يستجدون سادتهم

لتذهبَّ كلُّ أشعاري / بلا أسفٍ إلى القبرِ

بهذه الجملةِ .. الخنساءُ

قد ختمت رسالتها

التي كُتبت إلى صخرِ

تلك هي الحركة الأولى إذا استعملنا مصطلحات السيمفونية الموسيقية ، أما الحركة الثانية فهي تصوير الخنساء لأحزانها التي تتمثل في شعورها بالاغتراب المكاني والنفسي ، فهي ترسف تحت أغلال التقاليد القبلية ، ولم يعد الشعر سلوى لها وترياقا لآلامها ومبعثا لبهجتها ، لقد ضاقت بدنياها وضاقت دنياها بها .

وراحت

تفتح التلفازَ / كي تنسى بداوتَهَا

وما ذاقته / من كاساتِ لوعتها

وما تركته مصفوفًا /

من الأحزانِ / فوقَ موائدِ الصبرِ

وتطول هذه الحركة إذ يعود الشاعر إلى بدء ، وهو استلاب الخنساء رمز الأمة العربية ، فتقلد مرة أخرى (صوفيا) (وهنري) للدلالة على الأجانب في استخدام الأدوات الحديثة حتى تغدو ابنة عصرها الحديث فتضع على عينيها السوداوين عدسات خضراء أو زرقاء وغيرها من الألوان تشبها بالفرنجة ، وتستبدل بالخيمة التي كانت تسكن فيها مدونة ، وبالبيت الطيني الذي كانت تقيم به مرتبة إسفنجية وبالرمل أرصفة وأحجارا :

يمر الليلُ / تلو الليلِ

والخنساءُ ساهرةٌ

تُفتشُ عن مدونة لتسكنها

فما عادت بيوتُ الطينِ /

والخيماتُ والأخواصُ

تُرضي ذوقها العصريَّ

فاتخذت من الإسفنج مرتبةً

ونامت فوق أرصفةٍ مسلحةٍ /

من الأسمنت والحجرِ

وتأتي المقاطع الأخيرة من القصيدة الخنسائية تنويعات على اللحن الأساسي ، من حيث الصور المبتكرة التي تعبر عن المعنى الكلي ، إذ تتحدث عن أبناء الشاعرة العربية التي خلعت رداء الأصالة ولبست ثوب المعاصرة المزيف ، فاستبدلت بأبنائها الأربعة الذين استشهدوا في معركة القادسية واحتسبتهم عند الله ، أولادا آخرين ربّتهم على نهجها المستعار ، فنشأوا في حظيرة الخنوع للأجنبي ،

إشارة من الشاعر إلى تخاذل العرب ومذلتهم بعد أن كانوا سادة الدنيا الأعزاء الأكرمين في العصور الأولى للإسلام ، تلك الصورة التي أهدوا فيها حضارتهم إلى الغرب ، فكان عصر النهضة بدءا من فلورنسا بإيطاليا وعصر الظلم والظلمات في البلاد العربية ، عودًا على بدء مرة ثانية وثالثة ورابعة :

وللخنساء أبناءٌ

تربيهم على أسفلت غربتها

وتسقيهم حليب القهرِ / من أثداء نقمتها

فينمو الطفلُ ممتهنا / ومحتقرا أمومتها

يجيد مهارة الإصغاءِ

والتقليد / والترديد

وهكذا يتحول الشاعر في حديثه عن الخنساء المتفرنجة إلى الحديث عن أبنائها الذين أرضعتهم لبان المظاهر الحديثة المستوردة ، فأصبحوا كالغثاء بعد أن فقدوا أصولهم العربية العريقة ، وانحرفوا عن سواء السبيل .

ويسترعي نظرنا ذكر الشاعر في لمحة خاطفة كلمة القهر لوصف حال هؤلاء الأبناء ، وحبذا لو كان شاعرنا قد استفاض قليلا في القهر فعمق معناه وآثاره الوبيلة للدلالة على أن تقليد الأجانب ليس وحده علة التخلف ، بل إن استبداد الحكام العرب من أهم عوامل هذا التخلف والتردي قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير .

ولما كان فن الشعر هاجسا ملحا لدى شاعرنا فقد عاد إلى الحديث عنه فاستنكر كتابة الخنساء قصيدة النثر بعد أن استهوتها الحداثة . ولو أن يوسف حسني قصر رأيه على النماذج الرديئة من قصائد النثر لكان منصفا ، ذلك لأن ثمة نصوصا من هذا النوع الفني بلغت ذروة الإبداع ، ويكفي أن نستشهد بنصوص محمد الماغوط ومصطفى صادق الرافعي في كتابه (أوراق الورق) وجبران خليل جبران ومي زيادة وغيرهم .

ويختتم شاعرنا قصيدته بمثل ما بدأها ، فيبكي الشعر لضياعه في عصر الهوان الذي استمرأه ، فغدا العرب أذلة بعد أن كانوا أعزة ، وصدق فيهم قول شاعر العربية الأكبر المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليهِ ما لجرح بميت إيلامُ

هكذا ينزف جرح الشاعر يوسف حسني :

يمر العام / تلو العامِ
والخنساء بائعة قضيتها
تسافر كلما شعرت بوخز الجوعِ
راجيةً من الأعداء لقمتها
وتزعم في الفضائياتِ
أن السيفَ
ليس له بعصر (النت) / فلسفةٌ
وأن برامج الرؤساءِ
تحمل في ثناياها
بريق العز والنصرِ
لذا فليصمتِ الشعرا /
ويبقى الشعر مصلوبا
ومعصوبا ...
وممنوعا من النشرِ

ونختم هذه الدراسة بقدرة شاعرنا على إعادة صياغة مفهوم الصدمة الحضارية الذي يعني ما يصيب القرويين من إحساس مرير حين يفدون إلى المدينة ، إذ يفتقدون ما ألفوه من مكارم الأخلاق المتمثلة في المروءة والنجدة

وحسن الجوار والتعاون في السراء والضراء والحياة الآمنة المطمئنة ، وقد قلب يوسف حسني هذه الظاهرة وهي الصدمة الحضارية رأسا على عقب ، فجعل الخنساء تتنكر للبداوة وتشغف فؤادها حبا حياة المدن مما يذكرنا بقول الشاعر القديم (كالمستجير من الرمضاء بالنار) ، ولكن الشاعر عاد إليها وقد استنكرت تلك الحياة التي ضربت عرض الحائط بالفضائل وحقوق الإنسان ، فانطوت صفحات الزمن الجميل الذي عاشته الخنساء رمز العروبة واستبدلت به عصرنا الشقي .

تحية للشاعر يوسف حسني وأمنية ألا يتخلى عن مسيرته الفنية مهما كانت العواقب ، وحبذا لو حذف من عنوان القصيدة كلمة (آخر) لأنها تنم عن الإحباط واليأس من مصير الأمة العربية التي اتخذ شاعرنا الخنساء رمزا لها ، فلقد نهضت من كبوتها بعد ثورات شعوبها ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر . ونحمد لشاعرنا طوافه في آفاق الشعر والفكر ، فضمّن ديوانه قصائد من وحي الحرية والمقاومة وغزليات لا يقلد فيها أحدا ، وابتهالات وتأملات في النفس والمجتمع والحياة وما يموج بها من آلام وأحلام ، صاغها بإحساس مرهف وعاطفة مشبوبة.

هامش :

ألا إن نفس الشعر ماتت ،إن يكن عداها حِمام الموت وهي تنازعُ
سأبكي القوافي بالقوافي فإنها عليها ولم تظلم بذاك فواجع